

إعادة بناء التصور الديني

للصراع العربي - الإسرائيلي

د . محمد رضا محرم

الأستاذ بكلية الهندسة - جامعة الأزهر - القاهرة

الأيدولوجية ، وكذلك تفاوت مناهجها الفكرية .

فالبعض يرى في هذا الصراع جوهرًا اقتصادياً يضع حركة التحرر العربي في مواجهة الامبريالية . بينما يراه البعض الآخر في ثوب قومي يضع حركة القومية العربية (بمضمون تقديمي عادة) في مواجهة استعمار استيطاني صهيوني غاصب مؤيد من قبل الاستعمار العالمي عادة . هذا في حين يستهوي البعض الثالث أن يكون لهذا الصراع نكهة دينية فيتصوره حرباً مقدسة بين الإسلام وبين اليهودية . وفي كل حالة من هذه الحالات الثلاث فإن العدو المباشر (والمتمثل في إسرائيل) تتم صباغته بلون مختلف ، ونجري تغليفه بغلاف متميز ، بل

شاء البعض أم أبى ، اعترف بذلك أم أنكره ، أحسن الفهم أم أساء ، فإن الصراع العربي - الإسرائيلي هو المحور الرئيسي الذي تتحدد على أساس منه مواقف كافة القوى السياسية والاجتماعية والفكرية في الوطن العربي . كما أن معايير تقويم الممارسات اليومية لهذه القوى إنما هي نبت هذا الصراع . يستوي في ذلك أولئك الذين يرون الصلح مع إسرائيل وهماً مدمراً ، أو أولئك الذين استغرقهم هذا الوهم فأدمنوه واستسلموا له .

وما لاشك فيه أن القوى السياسية المختلفة في الوطن العربي تتفاوت في تشخيصها لهذا الصراع ، وتحديد طبيعته ، وتحديد هوية العدو ، بقدر تفاوت منطلقاتها

وقد ينتهي الأمر بتقديمه إلى الجماهير العربية — المسلمة في طبة مغايرة . فهذا العدو (الواحد) هو لدى البعض الأول بمثابة الامبريالية الصغرى الخادمة (أو التابعة) للإمبريالية العالمية ، بينما هو عند البعض الثاني ذلك الاستعمار الاستيطاني الذي تم زرعه بمعرفة الاستعمار ومعونه لتكريس تحزئة الأمة العربية والحيلولة دون توحيدها ، ثم إنه بؤرة تجميع ليهود العالم يتركز فيها الكيد للإسلام (وللمجتمعات المسلمة) ويبلغ أشده عند ذلك البعض الثالث .

وقد أثبتت التجربة اليومية ، كما أكدت المعاناة الطويلة التي عاشها عالمنا العربي منذ بدأ العمل مع نهايات القرن التاسع عشر لتجسيد المشروع الصهيوني في شكل الدولة الإسرائيلية ، أن تصوراً واحداً من هذه التصورات منفرداً قد يكون على قدر من الصواب ولكنه لا يملك الصواب كله . وقد لا يجانب الإنسان الدقة إن هو قطع بأن يقين العرب جميعهم الآن ، وبغض النظر عن منطلقاتهم الفكرية المبدئية المتباينة ، أن جبهة العداء لإسرائيل في عالمنا العربي أوسع بكثير من جبهة العداء للاستعمار ، سواء نظرنا إليه في صورته التقليدية التي يصر البعض منا نحن العرب أن يعتمدها وأن يتصرف على أساسها ، أو نظرنا إليه في أشكاله المعاصرة ذات الأبعاد والمخاطر الاقتصادية — السياسية ، أي الإمبريالية ، والتي يرى عرب كثيرون ، ونحسبهم على قدر من الفطنة ومن حسن التقدير ومن صواب

الفهم ، أنها هي الأحق بالمعاداة والأجدر بالمقاومة . وليس أدل على ذلك من أن الدول العربية جميعها ، المحافظ منها والتقدمي ، قام ويقوم وسوف يظل يقوم ، رغم عوارض جزئية كثيرة محزنة وقد تكون مخزية ، بدور وجهد لا ينكر في إدارة هذا الصراع ومحاولة حسمه لمصلحة الحق العربي . وأحسب أن الصواب لا يجانب الإنسان أيضاً إن هو أكد أن سعة الجبهة المعادية للمشروع الصهيوني وللوجود الإسرائيلي إنما تنشأ أساساً عن بعض الإضافات التي يقدمها التناول الديني لهذا الصراع . وليس يقلل من قيمة هذه الإضافات ذلك القدر الكبير من الخلط والتشوش وعدم الوضوح الذي يكتنف ذلك التناول الديني للمسألة لدى الكثيرين ، بالإضافة إلى النقص وإلى الطابع التجزيئي في التناول والذي يشتركون فيه مع أنصار القولة الاقتصادية (الحرفية) للمشكلة العربية — الإسرائيلية ، أو مع مريدي الشوفينية القومية الذين يحاولون إخضاع الصراع العربي — الصهيوني لرؤاهم التحكيمية المسبقة .

وحتى ندرك القيمة العملية لهذه الإضافات الإيجابية التي يمكن أن تقدمها التصورات الدينية لهذا الصراع المرير ، فإنه يحسن أن نلقي نظرة على ساحة ذلك الصراع خلال الأعوام القليلة الأخيرة ، والتي ظهرت نتائجها مجسمة مع نهايات السبعينيات على وجه التحديد .

فمع نهايات عام ١٩٧٩ ، وبعد نضال مرير طال أمده ، تمكنت الشعوب الإيرانية ، تحت راية توحد إسلامية الصبغة ، أن تنهي إلى غير رجعة عصر آخر الشاهنشاهات غير العظام !. وليس مجالنا هنا بالطبع أن نناقش صحة الشعار الذي رفعته قيادة الثورة التي أرادت إسلامية من عدم صحته (وإن كنت أنا شخصياً أراه صحيحاً رغم متاعب الثورة وأزماتها بل وأخطائها الفادحة ، خاصة ما يتعلق منها بمعاداة الجيران العرب ومحاربتهم) . ولكن الذي يعنيني هو ذلك الموقف العملي الذي اتخذته هذه الثورة العظيمة من القضية الفلسطينية والذي تمثل في إنكارها لإقرار إيران بشرعية وجود إسرائيل ، ومنع البترول عنها ، واعترافها بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وإعلان نفسها قوة مواجهة في أتون ذلك الصراع العربي - الصهيوني . وقد جاءت المواقف العملية تلك للثورة الإيرانية إضافات إيجابية للجانب العربي ، في الوقت الخطير الذي وقع فيه الطرح الأكبر للقوة المصرية العربية من رصيد ذلك الجانب . هذه الإضافات الإسلامية المنطلق ، والدينية الطابع ، قد أكدت أن التصور الديني للبصر العربي - الإسرائيلي يمكن أن يقدم الكثير لتطوير ذلك الصراع آنياً ، ثم حسمه مستقبلاً .

ومرة أخرى ، عندما بدت في الأفق احتمالات تصالح مصري - إسرائيلي ، وعندما تجسدت هذه الاحتمالات واقعاً تعاقدياً بين حكومتي مصر وإسرائيل بمباركة

أمريكية ، وعلى أسس مرفوضة من كثيرين ، أو مشكوك فيها لدى من هم أكثر ، فقد تأكد أن التصورات الدينية للصراع يمكن أن تنهض بدور عظيم في تكييف هذا الصراع وفي إدارته . كما تبين أن القوى ذات المنطلقات الدينية ، محافظة كانت أو مستنيرة ، هي الأقدر على الفعل والمقاومة ، خاصة مع غياب الديمقراطية الحقيقية الذي يوشك أن يكون سمة عامة في الحياة السياسية العربية . فبينما كان ممكناً ، وبقدر من السهولة ملحوظ ، خاصة في أعقاب مفاجأة الاقتراب من العدو بالمصالحة ، أن يجري تقييد حركة كافة القوى والتيارات السياسية غير الدينية ، وشل فعاليتها ، وحرمانها من فرص التفاعل الفكري مع الجماهير ، وتشويه أية ممارسات اعتراضية تقوم بها عن طريق تكثيف الدعاية الحكومية المترخصة ضدها ، فقد ثبت يقيناً أن التيارات المعترضة ذات المنطلق الديني ظلت قادرة على الحركة ، وعلى الفعل ، وعلى التأثير ، رغم كل المعوقات ، ومهما كانت لا منطقية الإجراءات التي تم اتخاذها للمصادرة على حق الرأي الآخر في الوصول إلى جماهير شعبنا العربي ، في مواقع كثيرة على الأرض العربية ، خاصة إلى القطاع المصري من هذا الشعب العربي . وحتى في إطار التوظيف

والتوظيف المضاد للمعطيات الدينية التي حاول كل من فرقاء الخصومة العربية (المحدثه والعارضة والطارئة) أن يستخدمها للدفاع عن مواقفه أو لتبوير توجهاته ، وبغض النظر

المعاصر . ولعل أفضل ما أفضت إليه هذه الإيجابيات وتلك الفعاليات أنها قد ألقت الضوء الكاشف على كون الخصوصيات المحلية والإقليمية والقومية والحضرية للصراع العربي - الصهيوني تمهد أرضاً عظيمة الإتساع يمكن أن تلتقي عليها كافة التيارات الفكرية وأغلب القوى السياسية الفاعلة في الواقع العربي والتعامل مع مشكلات الوجود العربي .

هذا عن الفعاليات الإيجابية . أما فيما يتعلق بالجوانب السلبية فإننا لا ننكر ابتداءً أن التصورات الدينية للصراع العربي - الإسرائيلي تعلق بها أخلاط غير طيبة كثيرة ، مما يجعل هذه التصورات مشوبة بالغموض حيناً ، محقونة بالتناقضات أحياناً ، عصبية التصرف والسلوك في أحيان أكثر . بل والأخطر من كل هذا أن بعض الجوانب الملحقة اعتسافاً بهذه التصورات الدينية قد تقدم دعماً - غير واع - لمواقف العدو الصهيوني ولمنطلقاته الأيديولوجية . ومن هنا فإن الواجب يقتضي أن نعيد بناء التصور الديني للصراع العربي - الإسرائيلي ، وأن نخلصه من عناصر السلب فيه ، وأن ندعم إيجابياته .

وقد نحسن أن نثبت هنا ، وقبل أن نتطرق إلى التفاصيل المتعلقة بمبحثنا عن هذا التصور الديني للصراع العربي - الإسرائيلي ، أن مصطلح « التصور الديني » يقوم على اعتبارات فيها الكثير من التعميم . فالتوزيع الطيفي للحركات والتيارات الإسلامية متسع

عن كسب وعمن خسر ، وهو الأمر الذي بات الجميع يعرفونه ويرونه رأى العين ، وبغض النظر عن إمكانية أن يكون الفصل الديني ذا حدين ، فإن التجربة المأساوية تثبت أن أنصار الحق العربي الجريح المهان المهدر يمكنهم أن يجدوا في الدين (الإسلامي) مدداً وقوة ، وسنداً ودعماً ، ودعراً وسيفاً ، ونصراً وعزة ، وإباءً وشمماً ، وذلك رغم كل مشاعر السلب وقيم التدني التي قد يستبطنها الآخرون !

وقد لا يكون من قبيل المبالغة ، أو التوهم ، أن يقال أن عمليات المراجعة الفكرية المكثفة التي تقوم بها كافة التيارات الفاعلة في فكرنا العربي ، قومية كانت أو دينية أو ليبرالية أو ماركسية ، قد نشطت وتسارعت في الفترة الأخيرة . ونحسب أن مرد هذا النشاط وذاك التسارع وإن كان يعود في جانب منه إلى اشتداد أزمة الواقع الفكري العربي بعد الإخفاقات والتوقفات (وحتى الارتدادات) التي منيت بها أغلب محاولات التغيير والتقدم في عالمنا العربي ، كما يعود إلى اكتشاف كل فريق ، بل واقتناعه ، بعدم قدرته على تحمل تبعات مقاومة الانهيار أو مسؤوليات إعادة البناء منفرداً ، إلا أن التراكمات الإيجابية والفعاليات العملية التي توفرت للحركات الدينية هي التي لعبت الدور الأكبر في دفع عجلة المراجعة ، والنقد ، والتقويم الذاتي ، داخل كافة التيارات الفكرية المشاركة في صناعة الرأي العام العربي ، وفي صياغة العقل العربي

أولاً : نصوص وأقاويل متشابهة

جاء في سفر التكوين في العهد القديم :
« في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام — إبراهيم — ميثاقاً قائلاً : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » .

وجاء في سورة المائدة في القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام مخاطباً بني إسرائيل (*) :

﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ .

وفي عام ١٩١٩ يجزم الأمير الهاشمي فيصل بن الحسين^(١) وهو يخاطب القاضي الأمريكي فليكس فرانكفورتر :

« إن اليهود والعرب أبناء عم من الناحية العنصرية » .

وحتى بعض القيادات العربية المشهود لها بالحنكة السياسية ، وبحكمة القول والتصرف ، بالرغم من خلافات لا بد منها في تقويم إنجازاتها وممارساتها ، قد شاركت في ترويج مثل هذه الأطروحات .

ففي عام ١٩٦٦ يعلن الأمير فيصل بن سعود (الملك فيما بعد) :

« إننا لا نكن شيئاً ضد اليهود ، لأننا أبناء عمومة في الدم^(٢) »

للغاية ، كما أن كثيرين ممن يتبنون المنطلقات والأدوات الدينية للتعبير عن - المواقف السياسية قد لا يكونون منضوين تنظيمياً ضمن أي من هذه الحركات أو التيارات . ولكن قد يكون القاسم المشترك بين هؤلاء جميعاً أنهم ينطلقون ، وفق فهم ذاتي عادة ، من نصوص دينية ، أو من معطيات تراثية ، أو حتى من مسلمات فولكلورية وجدانية . ومن هنا فإنه يمكن تعميم صفة « التصور الديني للصراع العربي — الإسرائيلي » على تصورات هؤلاء جميعاً رغم ما قد يقوم بينها من تمايزات أو تفاوتات .

وكما يبدأ المشروع الصهيوني من نصوص التوراة يستقرؤها ويصطنع منها واقعاً كاذباً ، فإننا كذلك سوف نبدأ مع النصوص ، توراتية كانت أو عربية ، ثم نصعد بعد تحليلها مع التجربة والواقع ، على أمل الانتهاء إلى تقديم صياغة أو بنية (حتى ولو كانت أولية) لتصور ديني معاصر للصراع العربي — الإسرائيلي ، نرجو أن تكون مقبولة بمعايير العلم المعاصر من جهة ، وبمقتضى الاحتكام إلى الكليات الإسلامية من جهة ثانية . كما نتمنى أن تكون قابلة للتطوير في إطار حوار ديموقراطي إسلامي يشارك فيه العاطفون على الفكر الإسلامي وعلى الحركة الإسلامية .

ويتحدث ملك الأردن الحسين بن طلال
أكثر من مرة فيودد^(١) :

« إن العرب واليهود عاشوا مراحل طويلة
في التاريخ جنباً إلى جنب وفي صداقة وتعاون
كأقارب وجيران » .

ونحسبها أشهر من أن توثق تلك الأقوال التي
تسبب إلى الحسن الثاني ملك المغرب
بخصوص تلك القرابة التي تربطنا نحن العرب
باليهود ، وبخصوص العبقرية اليهودية التي
يمكن أن تتكامل مع المال العربي (من دول
النفط) ومع قوة العمل العربي (من دول
الفقر) لإقامة الرخاء المشترك في المنطقة ! .

وفي نوفمبر/تشرين ثاني ١٩٧٧ يوجه
مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل رسالة
مذاعة متلفزة إلى الشعب المصري ، تمهيداً
لدعوة رئيس جمهورية مصر العربية
(وقتذاك) لزيارة الأرض المحتلة (وبالتحديد
القدس المغتصبة) فيضمونها قوله :

« نحن وأنتم نلتقي عند أب واحد هو
إبراهيم » .

ولم تذهب بمعاملة بيجين هباء ، ولم تضع
هدراً . فلم تمض غير شهور قلائل حتى
كانت لغة الخطاب المفضلة لدى الساسة
المصريين أن يسبقوا اسمه بصفة السيد ، وأن
ينادونه وزمرته بالأصدقاء الأعزاء وأبناء
العم ! .

ويخطب بيجين بتاريخ ٢٠/١١/١٩٧٧
في مواجهة رئيس جمهورية مصر العربية^(٢)

والعالم أجمعه يسمع فيقول :

« لقد ذكر الرئيس تصريح بلفور .. لا
ياسيدي .. لم نطأ أي أرض أجنبية .. عدنا
إلى وطننا .. إن العلاقة بين شعبنا وهذه
الأرض هي علاقة أزلية ... هذه البلاد أقمتنا
حضارتنا فيها وفيها تنبأ أنبياؤنا » .

وأضاف الرئيس السابق لعصابة الأرجون
زفاي ليومي ، والرأس المدبر واليد الفاعلة
الآثمة في مذبح دير ياسين ، في موقع آخر
من خطابه سالف الذكر :

« هنا أقمتنا مملكتنا . وعندما استعملت
القوة ضدنا ، وعندما ابتعدنا عن أراضيها لم
نس هذه الأرض حتى ليوم واحد .. صلينا
من أجلها وتشوقنا إليها .. وحين يعود
الشعب بمشيئة الله إلى أرض صهيون ،
حينذاك تمتلي أفواهنا وألسنتنا بالبهجة
وبالنشيد .. وبرغم كل متاعبنا فإن عودة
صهيون هي التي تطلعننا إليها والتي ستأتي
لا بد » .

ومن باب الإحياء للتراث الحديث
(!) ، وحتى يكتمل الموزايك الخرافي (أو
التخريفي) الذي يصنع من أقوال الكتب
المقدسة (المحرفة) ، ومن أوهام العوام ،
وتورطات بعض كبار العرب أيضاً ، ثم من
تحريف آي القرآن عن مواضعه إن استدعى
الأمر ، وكذلك من وعي الصهاينة
بمصلحتهم ومطامعهم وتطلعاتهم ، فإننا
نضيف النصين التاليين .

قال بن جوريون في مقدمة التقويم الصهيوني السنوي لعام ١٩٥١ :

« نحن لم نرث بلاداً واسعة ، ولكننا وصلنا بعد سبعين سنة إلى أولى مراحل استقلالنا في قسم من بلادنا الصغيرة » .
وقال مناحم بيجين في الكنيست الإسرائيلي في شهر مارس ١٩٥٢ :

« لن يكون سلام لشعب إسرائيل ، مادامنا لم نحرر وطننا بأجمعه ، حتى لو وقعنا معاهدة الصلح » .

ثانياً : محاور أساسية في الرؤى الدينية للصراع

الدعوة الصهيونية ، كما تبدو في أدبيات الحركة والتي تضمنت النصوص السابقة مقتطفات قليلة منها ، تبدأ من وعد موجود في كتاب العهد القديم ، وتستند إلى مزاعم تاريخية تتحدث عن الاستمرار العنصري (الحضاري والبيولوجي) لبني إسرائيل القدامى . ومن هنا تصبح العودة إلى أرض الميعاد حق وضرورة . وزعم النقاء العنصري (وانغلاق الأنساب) يجعل من اضطهاد اليهود في أوروبا متكاملاً دعائياً وعنصرياً طلياً يتأكد عن طريقه حق هؤلاء (التاريخي والإنساني) في وطن قومي على أرض الأجداد !! .

وليس صواباً بالطبع أن نفعل الدوافع الاقتصادية والاستراتيجية وراء قيام دولة إسرائيل ، أو أن نفعل دور الاستعمار ثم

الإمبريالية العالمية في إقامة هذا الكيان العدواني ودعم استمراره على أراض لنا مغتصبة^(٤) . فكل ذلك كامن وصلب في أعماقنا الوجدانية وخلفياتنا الفكرية ومشاعرنا القومية . ولكننا نتجاوز هذه الظواهر فقط من أجل تحديد أدق وتركيز أفضل لمناقشة الرؤية (أو على وجه الدقة الرؤى) الدينية للمشكلة .

ولن أقف أيضاً لأناقش وجوه الضعف المتعلقة بالتسجيل المتأخر لكتاب العهد القديم والتناقضات والأخطاء التي يتضمنها^(٥) . ولن أقف طويلاً عند جهود الأنثروبولوجيين التي تنفي عن اليهود المعاصرين أن يكونوا ساميين^(٦) ، وتحدث عن مياه بيولوجية كثيرة جرت تحت الكباري اليهودية لتختلط أنساب ، وتتغير دماء ، وتسقط خرافة الانغلاق اليهودي الديني والعنصري .

أما الذي يعيننا من النتائج التي توصل إليها علماء التاريخ ، وعلماء الحضارات القديمة (الأركيولوجي) ، وعلماء السلالات (والأنثروبولوجي) ، فهو أن انتساب اليهود المعاصرين لليهود القدامى موضع شك ، بل هو موضع تكذيب لا يدفع . ويترب على ذلك أن قرابة الدم بين اليهود المعاصرين وبين العرب ليست تعدو أن تكون مغالطة هي إلى الخرافة أقرب . وتصبح القرابة بين العرب وبين يهود التوراة تاريخياً يروى ويستحيل بعثه حياً من جديد .

وفي تبني هذه النظرة لإقرار صريح بكون
يهود العالم المعاصر مجموعة موحدة
أنثروبولوجيا (سلاليا وعرقيا) ، انحدرت في
نقاء مستمر ودون اختلاط من أصلاب يهود
العالم القديم الذين كانوا يقيمون في منطقتنا
العربية ، بما يعني دعم الأكاذوبة التوراتية
الكبرى التي تمثل العمود الفقري للمشروع
الصهيوني .

وإدراك هذه الإشكالية يكشف لنا
كيف تتطابق أوهام العوام ، والنوايا الحسنة
لبعض المفكرين والقادة ، وتشذقات الفقهاء
أحيانا ، مع مغالطات الأعداء اليهود
الصهاينة ، والتي تمثلت في أغلب النصوص
التي أوردت من قبل في موضع سابق من
هذه الدراسة .

* ومحور آخر أساسي يتحرك عليه فريق
عربي آخر (مسلم عادة) شديد العدواة
للإهودية . وهذا الفريق شديد التعصب ،
يكره اليهود قدامى ومحدثين . وهو أكثر
تشدداً وأكثر عدوانية من الفريق الأول الذي
يأخذ بأكاذوبة القربة العرقية بين اليهود وبين
العرب ، ويوشك أن يكون مناقضاً لهذا
الفريق الأول في الظاهر ، ولكنه في الحقيقة
يظهر الفريق الأول ويظهر الحركة الصهيونية
(عن غير وعي) .

ويستقي هذا الفريق تصويره للإهودي
والمليودية من التوصيف القرآني ليهود التوراة
من بني إسرائيل الذين عاصروا الأنبياء
القدامى بصفة عامة ، وموسى عليه السلام

ومع استدعاء ما سبق أن قلنا به عن
عدم وجود رؤية دينية متكاملة (محددة
ومتبلورة ومطردة ومقبولة) للصراع العربي —
الإسرائيلي ، فإنه في إمكاننا أن نتبين أن
الذين ينطلقون في تصوراتهم (أو على وجه
الدقة انطباعاتهم) من منطلقات دينية قد
يتحركون على واحد أو أكثر من محاور ثلاثة
يلتقون فيها جميعها مع الصهيونية المعاصرة ،
رغم شكلية الخلاف بل وعدوانيته ، إن لم
يتطابقوا معها . مع التأكيد على المصادرة
المبدئية لأدنى الشبهات المتعلقة بسوء القصد
أو التحلل من الالتزامات الدينية أو الوطنية
أو القومية أو الأخلاقية في أفعال هؤلاء أو في
مقاصدهم .

* والمحور الأول في الرؤى الدينية للصراع
العربي — الإسرائيلي يقوم على وهم القربة في
الدم بين العرب وبين اليهود ، ويتحدث عن
تجاوز أمن وعن معيشة مسالمة بينهما في
الماضي ، ويلوح بإمكان تكرارها في
الحاضر ، استغلالاً لسماحة الإسلام ،
واعتماداً على سعة صدره تجاه المخالفين في
الدين . وهذا الخطأ الموضوعي الفادح الذي
يففل عن ضرورة تحديد الزمان والمكان
للذين تصبح فيهما ومعهما هذه المقولة
صحيحة ، يعطي الحركة الصهيونية موافقة
ساذجة على صحة منطلقاتها الغيبية ،
والتاريخية ، والعنصرية ، مثلما يؤكد عن غير
وعمي حقها المكذوب ليس فقط في أرض
فلسطين ، ولكن في دولة إسرائيل الكبرى
التي تمتد فيما بين النيل والفرات .

بصفة خاصة . ثم إنه يواصل استكمال الصورة القبيحة لهم مستقرأً السيرة النبوية وما ورد فيها عن يهود يثرب ويهود خيبر (وغيرهم) وعن عدائهم القبيح لمحمد عليه الصلاة والسلام وللدعوة الإسلامية التي جاء بها نبياً رسولاً وقائداً . ويسحب هذا الفريق خبراته التقليدية تلك ، ويترها من الزمان والمكان ، ويغفل عن العناصر الموضوعية في الصراع الدائر ، ويتحدث عن مؤامرة يهودية تستهدف الإسلام هي استمرار المؤامرات بني النضير ، وبني قريظة ، وبني قينقاع ، وغيرهم من يهود الجزيرة العربية في وقت البعثة المحمدية .

والذين ينحون هذا المنحى لا ينتسبون فقط إلى الشرائع المحافظة في الفكر الإسلامي ، والتي تقدم أكتية الأدبيات الدينية في هذا الخصوص سواء في الكتب أو على صفحات أغلب المجلات الدينية المعروفة ، ولكنهم قد ينتسبون إلى الشريعة التي قد ترى نفسها ، أو يراها الآخرون ، أكثر استنارة ، وأسبق تقدمية . ذلك لأن الإنسان لا يعدم وجود البعض من المنتسبين إلى هذا الفريق ، والذين يرون عدم جواز التعامل مع اليهود الصهاينة المعتصبين للأرض العربية ، في فلسطين وفيما حولها ، باعتبارهم « بني إسرائيل » الذين وصفهم القرآن بأنهم يقتلون النبيين ، وينقضون العهد ، ويكتمون ما أنزل الله ، ويشترون بآيات الله ثمناً قليلاً .. الخ^(١) . أي أن مطابقة تامة تقوم في فكر هؤلاء بين إسرائيل التوراة

وبين إسرائيل المشروع الصهيوني — الاستعماري الذي تم إنجازه ويجري استكماله في القرن العشرين ! . وهو الأمر الذي يعني أنه في العقل الباطن هؤلاء جميعاً تظل الصلة الحضارية والبيولوجية قائمة بين يهود موسى ، ويهود العصر المحمدي ، ويهود عصر النكبة في فلسطين المحتلة ، مما يفتح الباب أمام تطابق آخر بين أوهام العوام ، وتخططات المتعالمين ، ومغالطات الصهيونية المعاصرة .

* أما المحور الثالث الأساسي فعليه يتحرك (بل يتخبط) عرب مسلمون كثيرون مغيبون ، مثلما تتحرك عليه الصهيونية المعاصرة ، ولكن بوحي يقظ . وهنا يجري خلط رهيب بين اليهودية كدين وبين الصهيونية كحركة سياسية . فالحركة الصهيونية تستغل الدوافع الدينية التي يمكن أن تكون متعصبة بطبيعتها ، وتعتمد إلى تغيب الفروق الجوهرية بين الأمرين على أمل أن تستوعب القوة اليهودية في العالم كله في إطار الحركة الصهيونية . أي أن علاقة الحركة الصهيونية بالدين اليهودي هي علاقة نفعية (براجماتية) في جوهرها . وهي أي الحركة الصهيونية ، حين تعلن أن إسرائيل أرض يهود العالم جميعهم ، وحين تبحث عن تبرير توراتي لوجودها ، إنما تستغل العاطفة (إن لم تكن الغريزة) الدينية لدى الكثيرين للمشاركة في المشروع الصهيوني ، والإسهام المتحمس فيه . كما أنها توظف أحد عناصر التوحيد التي ثبتت فعاليتها على امتداد

تواريخ الأمم ، وتجارب الاجتماع الإنساني ،
وخبرات العمران البشري ، ألا وهو
الدين . وهي إذ تحاول جمع أشتات متباينة
من الناس (عرقياً ، وحضارياً ، وثقافياً ،
ولغوياً) إنما توظف عنصر التأليف الوحيد
المتاح أمامها وهو الاتحاد في الانتساب
التاريخي إلى الديانة اليهودية .

والحركة الصهيونية إذ تتخذ من
الفرضيات التوراتية الدينية نواة أولى
للتجميع ، إلا أنها تراكم عليها طبقات متتابعة
صلبة وسميكة من الإنجاز العلماني المادي
الذي يترتب على ممارسات دينوية قحة منبئة
الصلة بالدين في أغلب الأحيان . فالدين في
إسرائيل أداة تأليف اجتماعي ولكنه ليس
منهاج حكم . والذين يحكمون على يهودية
دولة إسرائيل بالتزام بعض قياداتها (وكثيرين
من مواطنيها) استخدام غطاء الرأس اليهودي
في المناسبات العامة لا يختلفون كثيراً عن
الذين يرون إسلام بعض المسلمين في
معاينة المسابح ، أو في رسم بصمة الصلاة
(الزبيبة) على الجبهة مراعاة بكثرة السجود
في الصلاة . والذين يرون في اتخاذ
الاسرائيليين المعاصرين من السبت يوم قعود
أسبوعي ، أو في امتناع بعضهم عن العمل
فيه ، دليلاً على التوجه الديني لدولة إسرائيل
إنما يخلطون بين تحول الموروث الديني إلى
عادة اجتماعية وبين اتخاذ الدين نظام حياة
وشريعة حكم .

وعندما نتجاهل نحن العرب ، أو البعض
منا ، كل هذه الفروق أو بعضها ، ثم نندفع
إلى مناطق غير متبصرة مع اليهودية ، التي
اختلط علينا أمرها فحسبناها والصهيونية
سواء ، فإننا نعطي الحركة الصهيونية
السياسية المعاصر (رغم تمحكها في الدين)
فرصة أفضل لتحقيق الحشد العنصري
الديني الذي ترجوه وتهدف إلى تحقيقه ، كما
أننا نفتتح أمامها الأبواب عن سعة للزعم أننا
نواجه علمانياتها بتعصبنا الإسلامي .

ولعله قد يكون مفيداً أن يستقر في
أفهامنا أن « كل الصهيونيين يهود وليس
كل اليهود صهيونيين » ، وأن الحركة
الصهيونية لا تعادينا لكوننا مسلمين ابتداء
ولكنها تستهدف إزالتنا من الوجود لكوننا
السكان وأصحاب الحق (مسلمين كنا أو
مسيحيين) في المنطقة التي ترمي إلى
تفريقها بشرياً لتنفيذ مشروع دولتها إسرائيل
وتثبيته ، وأن عداونا الشديد لسكان دولة
إسرائيل لا ينشأ مجرد كونهم يهوداً ولكن
لكونهم في الأساس اعتدوا علينا وبادؤونا
بالعدوان وظلمونا حقوقنا وأخرجونا من
ديارنا ، وأن مثل هذا العدا الشديد كنا
ولابد حامله لغيرهم لو أن هذا الغير مارس
ضدنا الذي مارسه الإسرائيليون ، وأياً كانت
ديانته أو معتقداته أو توجهاته . هذا مع
التأكيد أننا إذ نرى في توظيف الحركة
الصهيونية للدين اليهودي أداة للإضرار بنا
أو وسيلة لتتين الكيان الصهيوني في
إسرائيل (أو خارجها) ، فإنه يكون من

أحق حقوقنا ، بل ومن أوجب وأجابتنا ،
أن نجعل من كل ساحات توظيف الدين
اليهودي هذه ميادين قتال ، ومسارح
صراع ، ومنصات عداوة ، بشرط أن لا
يغيب عن وعينا أبداً أننا نخوض حرباً
شرسة ضد الاستخدام السياسي السيء
والمبتذل للدين اليهودي وليس ضد الديانة
اليهودية ذاتها .

ثالثاً : موضع القدس عند النظر دينياً للصراع

في القدس يبلغ التجسيد الديني للصراع
أشده . يرجع ذلك أساساً إلى القداست
المادية والمعنوية الكائنة في المدينة أو المرتبطة
بها ، والتي تخص الديانات السماوية
الثلاثة .

فبالنسبة لليهود هناك هيكل سليمان
المفقود ، وحائط المبكى (محل البراق)
الذي تنازعه اليهود والمسلمون في عام ١٩٣٠
وأقرت لجنة دولية حينئذ بملكية المسلمين له
ويحق لليهود في التعبد عنده (٧٠٠) . وهناك
أيضاً اورشليم العاصمة القديمة للدولة
اليهودية التي قامت في التاريخ القديم الذي
يزعم المعاصرون من الصهاينة انتسابهم
إليها .

وفي القدس أيضاً وعظ المسيح ، وحوكم ،
وجرت محاولة صلبة ، وسار في طريق الآلام
بها صاعداً إلى الجلجثة . وفيها من أعظم
القداست الدينية المسيحية كنيسة القيامة .

وحول المسجد الأقصى في القدس تتحلق
مشاعر المسلمين . فهنا مسرى الرسول
محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام . وهنا
مسجد من ثلاث تشد إليها الرحال . وهنا
أيضاً القبلة الأولى للمسلمين .

لكل ديانة قداستها في هذه المدينة
إذن . فلو حصرنا الصراع في إطار ديني
نحت فلمن يثبت الحق ؟!

وكيف نوفق بين أمنيات حاكم عربي مسلم
يود أن يستعيد العرب القدس ليصلي في
مسجدها الأقصى ، وبين المطامع الصهيونية
التي يعبر عنها دافيد بن جوريون رئيس وزراء
إسرائيل الأول وأبرز وجوه حرسها القديم إذ
يقول :

« لا معنى لفلسطين بدون القدس . ولا
معنى للقدس بدون الهيكل » ؟!

وكيف يمكن أن تقوم مصالحه
(حقيقية !) بين مطالبة الرئيس المصري
الراحل السادات بالقدس العربية (وربما
المدولة) أمام الكنيست الإسرائيلي في
١٩٧٧/١١/٢٠ ، وبين إصرار بيجين على
أن تظل المدينة المقدسة يهودية موحدة كما
جاء في خطابه التعقيبي على مطالبة
السادات السابق الإشارة إليها ، خاصة وأن
المدينة تضم هيكل سليمان في جانبها الشرقي
(المسمى الآن خطأ بالعربي ، حيث المدينة
كلها عربية في الأساس) ؟! . هذا مع
التذكير هنا أن البرلمان الإسرائيلي
« الكنيست » قد صادق في ٣٠ يوليو

١٩٨٠ م ، أي بعد حوالي العامين ونصف العام من مناظرة السادات/بيجين ، على قرار للحكومة الإسرائيلية ، التي كان يرأسها مناحم بيجين ، باعتبار القدس العاصمة الأبدية الموحدة لدولة إسرائيل .

ثم كيف نخول دون أن تكون الصلاة في المسجد الأقصى ، وقد تمناها مواطنون وقادة عرب كثيرون ، وسيلة لخداع الجماهير ، أو أن تكون تلبية داعي السلام الوهمي درياً ملتوياً أو ممهداً لتضييع الحقوق ١٩ .

في وضوح شديد ، نثبت هنا ، أنه لو اقتصر الأمر على القداصات الدينية ، والبقايا التاريخية ، والدعاوي الديما جوجية ، لتساوت في نظر الكثيرين ، إن لم يكن في نظر الجميع من خارج وطننا العربي ، حقوق العرب (مسلمين ومسيحيين) مع حقوق الصهاينة (اليهود) في المدينة المقدسة .

غير أن إدراك الحقائق الموضوعية للصراع العربي — الإسرائيلي ، واكتشاف الإطار الكلي الإسلامي الصحيح الذي تجب إدارته من جلاله ، ووضع القدس المدينة في الموضوع الصواب من هذا الصراع الشامل ، كلها عوامل تجعل حق العرب (أياً كانت ديانتهم) لا لبس فيه ولا جدال ، كما تجعل وقوف الآخرين معهم قائماً على أسس موضوعية مقبولة لدى هؤلاء الآخرين ، وليس على أسس وجدانية يستحيل أن تكون مبررة لديهم ، رغم أهميتها المطلقة لدينا نحن .

فالقدس ليست هي المأساة ، ولكنها جزء منها . وأرضنا كلها مقدسة وليست القدس فقط . وتلك حقيقة حضارية ومادية ودينية في آن واحد .

رابعاً : تعريف بعناصر المأساة وأبعاد الصراع وأدواته

ليس القصد هنا تقديم تغطية تفصيلية لأبعاد الصراع الدائر بين قطب الدفاع عن الحق (الجانب العربي) وبين قطب الاعتداء عليه (الصهيونيون ومن يؤازرونهم) ، ولا للأدوات التي يجب أو يمكن استخدامها عند إدارة هذا الصراع ، ولا للنتائج التي ترتبت على ممارسته في الماضي ، أو التي يمكن أن تترتب على استمراره مستقبلاً . فالجمال لا يتسع لكل هذا . كما أن مستهدفات الدراسة قد لا يتجدها مثل هذا التفصيل .

غير أن تذكراً وتأكيداً للأساسيات التي تحكم حركة الصراع ، والتي أتصورها حية وحاضرة في أذهان الكثرة الكاثرة منا ، تصبح واجبة ، باعتبارها معبراً لمحاولتنا تلك التي تستهدف ترشيد منظورنا الديني للصراع العربي — الإسرائيلي .

وعناصر النكبة القومية هي : أرض مسلوقة مغتصبة (قبل ١٩٦٧ ويعدها) ، وشعب مشرد تم إخراجها بالعنف من دياره ، أو تم قهره حين أبقي على البعض منه داخل تلك الديار ، ثم حقوق مادية وأدبية عديدة مهدرة .

معركة سياسية ، ولكن يضاف إلى كل ذلك متطلبات وضرورات وأدوات قتال اقتصادية ، واجتماعية ، وثقافية ، ودينية .

وقد تكتسب القدس أهمية خاصة ، ثقافية ودينية ، على خريطة ذلك الصراع الحضاري الرهيب الذي نخوضه . ولكن تبقى القدس قبل كل هذا وبعده ، أرضاً ضاعت ، وشعباً طرد أو سيطرده ، وحقوقاً مادية ومعنوية قد انتهكت . وهذه هي الحقائق الصماء التي تربط بين القدس المدينة وبين فلسطين الوطن ، والتي يجب التعامل معها ، والتي يجب توظيف جميع الدوافع السياسية والاقتصادية والثقافية والروحية لخدمتها .

خامساً : إعادة بناء التصور الإسلامي للصراع

حتى يتحدد دور أكثر موضوعية ، وأشد فاعلية ، للمفهوم الديني (الإسلامي على وجه التحديد) للصراع الدائر بيننا وبين العدو الإسرائيلي ، وحتى لا تختلط الأوراق لمصلحة العدو ، فإن الأساسيات التالية لابد وأن تتأكد ، كما لابد وأن يقبل بها الجميع .

*** إن العلم ، والعلم فقط ، هو المهيأ لحسم ادعاءات العدو وخرافاته . فعلماء التاريخ ، وعلماء الحضارات ، وعلماء السلالات والأجناس ، هم أصحاب الكلمة الأولى (والأخيرة أيضاً) في شأن توهمات الانتماء البيولوجي ، وادعاءات الانتساب

والقوى التي تصادمنا وتحول دون استرداد حقوقنا ليست هي الصهيونية العالمية فقط ، ولكن الاستعمار والامبريالية وقوى التخلف والرجعة العالمية بصفة عامة .

والكيان الإسرائيلي قد استُتبت في المنطقة (بفعل استعماري) ، ونما في مرحلة ضعف وتخلف حضاري سيطر على العالم العربي (بدعم امبريالي) . وكان العالم أجمعه على وجه التقريب مستقطباً لصالح الحركة الصهيونية .

كل هذا يعني أن الجبهة التي يجب أن نتاضل عليها أطول من حدودنا الجغرافية مع إسرائيل ، كما أنها أكثر اتساعاً من الرقعة التي تحتلها إسرائيل الدولة الآن ، أو تطمع في احتلالها مستقبلاً ، حتى تستكمل استقلالها المزعوم الذي أعلن عنه بيجين بتاريخ ١٩٧٧/١١/٢٠ أمام الكنيست الإسرائيلي ، وأمام الوفد المصري الذي زار إسرائيل وقتئذ برئاسة الراحل السادات ، وأمام العالم أجمع . وهذه الجبهة تمتد في الزمان أيضاً إلى آمد طويلة لم تأت بعد .

ويصبح التحدي الذي يواجهنا كما أحسن البعض تشخيصه تحدياً حضارياً^(٨) . ويصبح أمن إسرائيل في أعماقه الحقيقية البعيدة أمناً حضارياً وليس أمن حدود ، وهو ما يعني تخلف المجتمع العربي في مقابل تقدم المجتمع الإسرائيلي^(٩) .

وهذا الصراع الحضاري الذي فرض علينا أن نخوضه ليس معركة عسكرية فقط ، وليس

الحضاري ، التي يزعمها العدو . وما تنتهي إليه هذه العلوم هو الجواب الحاسم . أما الاحتكام إلى النصوص القديمة فليس بذي جدوى ، لأنها تتضارب عادة ، كما أنه في الإمكان فهمها على وجوه عدة متناقضة ، إن لم تكن متعادية .

والاحتكام إلى روح العلم ، والخضوع لمقتضياته ، إنما يعبر في جانب منه عن إدراكنا العملي للدلالات الحقيقية لكون الصراع بيننا وبين العدو الصهيوني صراعاً حضارياً شاملاً ، مثلما سبق أن أوضحنا في موضع متقدم من هذه الدراسة .

★★ إن الكتب المقدسة ، بفرض أن التاريخ من أجل التاريخ كان هدفها ، لم تكن تعرض إلا لتاريخ كان قائماً . أما عن استمرار هذا التاريخ (بجوانبه الحضارية والبشرية والجغرافية) أو انقطاعه ، فهنا تعفى هذه الكتب من المسؤولية ويتحملها الإنسان العالم الباحث المدقق المتخصص . إن آية سورة المائدة التي سبق إيرادها في هذه الدراسة^(*) (على سبيل المثال) تعبر عن حقيقة وقعت في أيام موسى عليه السلام ، ولكنها لا ترتب حقوقاً أبدية أو مستقبلية لقوم موسى هؤلاء ، وذلك مع افتراضنا (من باب الجدل) أن يهود أوروبا الاشكنازيين ومنهم المدعي بالكذب ييجين وكل قيادات إسرائيل جاءوا من أصلاب هؤلاء القوم الذين خرجوا مع موسى عليه

السلام من مصر لنتهي رحلة الخروج بهم إلى الإقامة في فلسطين ! . ومن هنا يسقط حق الإرهابي مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل آنذاك في استخدام مثل هذه الآية لتعضيد المطامع الصهيونية في الأراضي العربية مثلما فعل قبيل الزيارة النكبة لرئيس جمهورية مصر العربية الراحل للقدس في نوفمبر ١٩٧٧ م ، كما يصبح فزعنا من استخدام مثل هذه الآية (وقد حدث أن فزعنا فعلاً) هو الآخر لا مبرر له .

إن حقائق التجربة الإنسانية الطويلة تثبت أن التغيرات التاريخية ، والصراعات الحضارية ، تجري في الواقع ، وهي محكومة بالمعطيات الموضوعية والحياتية ، وليست محكومة بالمعطيات أو الموضوعات التراثية .

★★ إن من التزيد في القول (وقد يكون من الخطأ) الزعم بوجود رؤية إسلامية بعينها للمشكلة الفلسطينية ، أو لمشكلة القدس ، أو لمشكلات الأراضي المحتلة ، أو للصراع العربي — الإسرائيلي بصفة عامة . ولكن الصواب أن نقول أن للإسلام رؤيته الكلية لمسائل الجهاد ، والحرب ، ورد العدوان ، والمحافظة على الحق والدفاع عنه . وفي إطار هذه الرؤية الكلية يتحدد مسلكنا ، وتبلور مناهجنا لمواجهة التحدي الصهيوني — الامبريالي — الرجعي الذي يواجها .

والعنصر الديني في هذا الصراع المير يجب أن لا يتشوه ، أو أن يمسح ، فيصير

العدو الصهيوني وبين الانتفاع من أطروحائنا (المبترة المتناقضة) الطيبة النوايا ، لدعم أطروحاته (المدققة الصياغة) الخبيثة النوايا العدوانية الأفعال ، فإن العناصر الجهورية التالية يجب أن تعتمد ، وأن تؤخذ في الاعتبار ، كما يجب أن توظف كأركان أساسية يقوم عليها البناء الجديد المستهدف .

١ - في القرآن الكريم وفرة ملحوظة في الآيات والمقاطع القرآنية التي تركز على ذكر « بني إسرائيل » ، واليهود بصفة عامة ، ورواية أخبارهم ، وتوصيف سلوكياتهم ، وتقويم ممارساتهم ، والإدانة لهم ، والتنبيه إلى مساوئهم ، ولفت النظر إلى الحكم والدروس التي ينبج على المسلمين والمؤمنين استخلاصها إذ تتلى عليهم أمثال هاتيك الآيات والمقاطع القرآنية .

ويهود عصر المبعث المحمدي في المدينة وما حولها كان لهم هم الآخرون نصيب وافر من الاهتمام القرآني . وكان أغلب هذا الاهتمام سلبياً في محتواه ، إدانياً في توجيهاته ، شديداً في أحكامه عليهم ، عنيفاً معهم ، ناقماً عليهم ، غاضباً منهم ، مشعباً بالتحقير لأفعالهم ، منذراً إياهم دوماً بالويل والشور وسوء المآل .

وتركيز القرآن الكريم على « بني إسرائيل » دون سواهم من الأمم الخالية ، قد يكون مرده أن القرآن لم يكن يهتم بغير أخبار تلك الأمم القديمة التي أرسل الله إليها الأنبياء

استنفاراً لعداوات تاريخية ضد جنس بعينه ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ ، ولا ضد دين بذاته . ذلك لأن مجرد المخالفة في الدين ليست سبباً للعداء في الإسلام . فكما يشرح الإمام العظيم المجتهد الشيخ محمود شلتوت (١) فإن : « الإسلام لا يجعل مجرد المخالفة في الدين سبباً يخمل على التقاطع بالتفريق وسلب الحريات والإخراج من الديار ، وإنما يجعل العداء الذي يدفع المخالفين إلى الإيذاء والفتنة سبباً مانعاً من مواليتهم والامتزاج بهم ، والأعتداد عليهم . وقد قرر ذلك في آيتين واضحتين : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتوهم فأولئك هم الظالمون ﴾ (المتحنته ٨ ، ٩) .

أما الاستخدام الرشيد للعناصر الدينية الروحية في هذا الصراع الحياتي الديني العاتي فإنه يتمثل في الإصرار الدؤوب على فضح تزيف المزيقين ، والعمل على حشد المؤمنين جميعاً وراء التوجيه الإسلامي الكلي لاستخلاص الحق ورد العدوان .

**** ولو حاولنا إعادة بناء التصور الديني لهذا الصراع العربي - الصهيوني ، بشرط أن يقوم متأسكاً ومتناسقاً مع الكليات الإسلامية ، وبشرط أن نحول بين**

والنتيجة المنطقية التي يمكن الانتهاء إليها هنا أنه من التجاوز لروح الإسلام ومقتضياته أن يتوهم البعض منا ، أو يحاول أن يوهنا ، أن الإسلام إنما هو في حالة حرب مقدسة أبدية مع الديانة اليهودية .

والرسل ، والتي تتوفر في تواريخها وفي أعمال أهلها مواطن الاعتبار والعظة . وبقدر كثرة الأنبياء الذين ظهروا في « بني إسرائيل » ، وبقدر شذوذ استجاباتهم لهؤلاء الأنبياء بما يوفر من الدروس والعبر الكثير ، فقد كان نصيبهم من اهتمام الخطباء القرآني كبيراً للغاية .

٢ — في القرآن الكريم تقوم تفرقة واضحة بين اليهود الذين عاشوا في الجزيرة العربية ، وتعامل المسلمون معهم في فترة البعثة المحمدية ، وبين « بني إسرائيل » . فالخطاب القرآني إذا تعلق بمعاملة مباشرة أو محاجة عرضت بين يهود المدينة وما حولها وبين الرسول محمد ﷺ وأتباعه استخدم صفة « اليهود » ، على اعتبار أن الديانة كانت قاعدة التصنيف للتجمعات السكانية المختلفة في مجتمع المدينة وقتئذ . وقد اطردها هذا الاستخدام في المواضع الثمانية التي ورد فيها لفظ « اليهود » في القرآن . أما مصطلح « بنو إسرائيل » الذي ورد في القرآن إحدى وأربعين مرة فقد جاء مخصصاً للحديث عن يهود عصر موسى وعن يهود عصر عيسى وعن القوم في عصور أنبياء « بني إسرائيل » الأسبق . ولم يستخدم هذا اللفظ تخصيصاً لليهود عصر المبعث إلا في موضعين من هذه المواضع الإحدى والأربعين .

* ﴿ سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة .. ﴾ (البقرة — ٢١١) .

أما يهود الجزيرة العربية (وفي المدينة بصفة أساسية) فقد كان كيدهم للنبي ، وغدرهم بالمسلمين ، ومحاربتهم للإسلام ، كلها أمور ترشحهم لاهتمام النص القرآني بهم ، مثلما تفتح الباب أيضاً للمزيد من الإحالة إلى فعاليات اليهود السابقين من بني إسرائيل .

غير أن الذي يجدر إثباته ، ولفت النظر إليه ، والتأكيد عليه ، أنه رغم حمل القرآن بشدة على « بني إسرائيل » وعلى يهود المدينة ، ورغم أن الرسول ﷺ أغلظ على المجموعات منهم المناوئة له وللمسلمين (سياسياً ثم عقيدياً) ، إلا أن الرؤية الإسلامية لعموم اليهود كأصحاب ديانة ظلت تعتبرهم من أهل الكتاب ، وحفظت لهم كل الحقوق المدنية والاعتقادية المترتبة على صفتهم تلك ، مثلما فرضت على المسلمين ضرورة التزام المودة حين التعامل معهم ، ما لم يصدر عنهم (أي عن أهل الكتاب من اليهود) ما يفيد صراحة أنهم قد طرحوا عن أنفسهم التزام المودة تجاه المسلمين .

* ﴿إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾
(النمل — ٧٦) .

وواضح أن في هذين الموضعين إحالة إلى موروثات قديمة يمكن أن يتناقلها اليهود ، أياً كانت أصولهم العرقية ، عن بني إسرائيل ، أي يهود عصر موسى ، مما يفتح الباب لإمكانية توجيه الخطاب للعام (اليهود) بصفة الخاص (بني إسرائيل) الذي هو مسئول مسئولية مباشرة عن هذه الموروثات .

ومن هنا فإن تفرقة صريحة بين « يهود موسى والتوراة » وبين يهود « الاغتصاب » في أيامنا هذه تصبح أوجب ، عقلاً وشرعاً . كما أن الانقطاع العرقي ، رغم بقاء بعض أشكال التواصل التراثي ، بين يهود عصر البعثة المحمدية وبين يهود اليوم ، يصبح هو الآخر بالتالي ممكناً ، عقلاً وشرعاً أيضاً .

٣ — الهجرة بالنفس والمال إلى مجاهدة العدو الغاصب ، ونصرة المظلوم المضيع ، واجبة ومشروعة . والرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه يقرر أن : « رهبانية أمتي الجهاد » . بل إن الإسلام ليربط بين الإيمان وبين المجاهدة ربطاً يكاد يكون مطرداً تحكمياً ، وكأنما الجهاد بكل ما يكتنفه ويواكبه من صعوبات ومشاق وتضحيات هو المحك الحقيقي الوحيد لصدق الإيمان وصحته

* ﴿إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا

وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ (الأنفال — ٧٢) .

* ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ (التوبة — ٢٠) .

* ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات — ١٥) .

ويضيق المجال عن حشد كافة الآيات والمواضع القرآنية التي تعلي من شأن الجهاد وتؤكد مشروعيته ، ونحث عليه ، وتقرنه بالإيمان . ولكن أفضل ما نختم به حديثنا في هذا الشأن أن نذكر أن الحق جعل التقوى منطلق الجهاد ، كما جعل من الجهاد الوسيلة إليه ، ونعم المنطلق ونعم الوسيلة ونعم الهدف ؛ حيث يقول جل وعلا :

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة — ٣٥) .

٤ — الشهادة في الإسلام تكون أيضاً في سبيل الأرض والعرض والمال .

* ﴿وَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ عَرْضِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَرْضِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (حديث شريف) .

وليس بخاف على أحد في العالم كله ، رغم المكابرة ، وليس في العالمين الإسلامي

والعربي فقط ، أن منفذي المشروع الصهيوني قد سلبوا المال ، وسرقوا الأرض ، واتهكوا العرض ، وهو ما يوجب على المسلم الحق لا أن يطلب الشهادة مرة ، بل وأن يدعو الله أن يمكنه من الاستشهاد ثلاثاً .
 هـ — المسلم مأمور بمحاربة من عاداه في دينه ، أو أخرجه من وطنه ، أو ظاهر عدوه عليه ، كما أنه مأمور أيضاً بعدم موالاة هذه الأصناف جميعاً .

* ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ ، وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُكُمُ الْظَالِمِينَ ﴾ (المتحنة — ٩) .

أي أن الحركة الصهيونية عدو ، وإسرائيل الدولة عدو ، والاستعمار الذي يظاهرها عدو ، وأمريكا التي تواليها وتدعمها وتحرضها على العدوان علينا عدو . وقتال كل هؤلاء وعدم موالاة أي منهم واجب ديني . ومن قال بغير هذا ، أو عمل على غير مقتضاه ، فقد قال بغير الذي يقول به الإسلام .

والقتال واجب على المسلم وحق له إن وقع ظلم عليه . وهو إن سكت على هذا الظلم ولم يدفعه ، مع مراعاة أن تؤخذ كل حالة بملاساتها ، فإنه متهاون في تنفيذ أوامر الحق الذي يقول :

* ﴿ أَذْنٌ لِّلَّذِينَ يِقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ۖ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (الحج — ٣٩) .

بل إن الإسلام لا يرضى للمسلم الحق (المؤمن) أن يسكت على البغي ، ولا أن يقف منه موقفاً سلبياً ، حتى ولو جاء من أخوة له في الدين . والإنجائية من مظاهرها محاولات الإصلاح بالتّي هي أحسن (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) ، فإن لم يكن من السيف بد لوقف البغي فللضرورة أحكامها .

* ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الحجرات — ٩) .

والبغي هو المقابل السلبي للعدل . والعدل إقامة لحكم الله في الأرض . وحكم الله (عظم علمه ووسع كل شيء) ليس نشراً فظاً لدعوة عقيدية بعينها ، وليس إكراها للناس أن يكونوا مؤمنين ، ولكنه في واسع المعنى ، ومرن الفهم ، إحقاق لحقوق الإنسان الأساسية المكفولة طبقاً لنهج الدين ووفقاً لشرع الله الحكيم العادل .

ومبادأة المسلمين بالعداوة ، والتحرش بهم للقتال ، يستوجبان منهم أن يقوموا إلى الجهاد ، وأن ينفروا خفافاً وثقلاً ، وأن يشروا بالحياة الدنيا الآخرة ، وأن يقابلوا فعل العدو الغاشم بمثله ، بل وبما هو أنكى منه .

* ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة — ١٩٠) .

وهن منى عنه :

* ﴿ فلا تمهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم — أي ينقصكم — أعمالكم ﴾ (محمد — ٣٥)

الخلاصة

إدراك الحقائق الموضوعية للصراع العربي — الإسرائيلي ، والتمسك بها ، والعمل من خلالها ، يضعنا على الطريق الصحيح لخوض التحدي الحضاري الذي يواجهنا ، ويجعل كفة العرب والمسلمين راجحة فيما يتعلق بحقوقهم القديمة والمعاصرة في فلسطين وفي كافة الأراضي المحتلة ، بما فيها القدس . وحتى نحرم العدو من الميزات التي تتحقق له عن طريق خلط المفاهيم الدينية والتلاعب بها ، وحتى نستثمر الدوافع الدينية المستنيرة لدى مواطنينا ، فإننا يجب أن ننظر إلى الصراع العربي — الصهيوني في إطار الرؤية الإسلامية الكلية لمسائل الجهاد ، ورد العدوان ، والحفاظة على الحقوق . كما يجب أن نترك للعلم والعلماء أمر البت في الادعاءات التاريخية والأنثروبولوجية والأركيولوجية التي يزعمها العدو .

مصادر ومراجع

- (١) د . جمال حمدان ، اليهود أنثروبولوجيا ، المكتبة الثقافية ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، (١٩٦٧) .

وفي إطار النموذج العربي — الصهيوني للصراع ، فإن كافة الأسباب الموجبة للقتال ضد الصهيونية وضد الذين يوالونها (الاستعمار والامبريالية وما وراء ذلك) كلها موجودة ومجمعة . فالإخراج من الديار حقيقة ، والمظاهرة للعدو دائبة ونشطة ، والقتال الباغي من جانب إسرائيل (العدو المباشر) بمثابة القوت اليومي لإخواننا في لبنان ، وفي معسكرات اللاجئين ، وفي الأرض المحتلة ، وعلى كافة خطوط المواجهة (رغم الصمت الكاذب للمدافع في بعض الأحيان) . ومن هنا فإن الصبر والمصابرة والمراقبة في مواجهة هذا العدو الباغي الغاشم تصبح واجبا دينيا .

٦ — والجنوح إلى السلم ، في المفهوم الإسلامي الصحيح ، ليس عملاً ساذجاً أو يوتوبيا سياسية ، أو مغامرة تليفزيونية . ولكنه اختيار القادرين القائم على العدل . فبعد حشد المستطاع من القوة لإرهاب عدو الله ومن وراءه :

* ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم .. ﴾ (الأنفال — ٦٠) .

أما تعجل السلم أو استجدائه ، أو البحث عنه في غير مواضعه الصحيحة ، أي في غير مواضع القوة والعزة والأنفة ، واستعادة الحقوق المغتصبة ، ورد الحرمات المنتهكة ، ورفع الظلم الذي وقع ، إنما هو

المنطقة بعد حرب أكتوبر ، مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس ، ندوة ، (٢٢ — ٢٣ أكتوبر ١٩٧٧) .

(١٠) محمود شلتوت (الإمام الأكبر) ، من توجهات الإسلام ، دار القلم ، القاهرة ، (١٩٦٦) .

(*) في أول رد رسمي لرئيس وزراء إسرائيل مناحم بييجين على إعلان الرئيس المصري استعداده لزيارة القدس (التي تمت في نوفمبر/تشرين ثاني ١٩٧٧) أورد مناحم- بييجين هذه الآية الكرعية مسيئاً استخدامها لدعم الحق التوراتي المزعوم لليهود في أرض فلسطين العربية . وقد أعطت هذه المحاولة منه نموذجاً صارخاً لكيفية توظيف أكاذيب الناس لأصدق الأقوال للتزييف على الناس وخداعهم . ومن هنا تبدو أهمية تصدرها للنصوص الواردة في هذا الجزء من الدراسة على أن يتم تناولها فهماً وتفسيراً في صلب الدراسة في موضع لاحق .

(*) أي أن شعب بييجين لم تكن قد تمت عودته إلى كل أرضه المزعومة بعد وحتى تاريخه ١٩٧٧/١١/٢٠ م .

(*) أنظر الآية ، والهامش المتعلق بها ، في رقم (١) من هذه الدراسة .

(٢) مناحم بييجين ، خطاب في حضور الرئيس المصري في القدس ، جريدة الأهرام ، القاهرة ، (١٩٧٧/١١/٢١) .

(٣) خيرى حماد ، التطورات الأخيرة في قضية فلسطين ، كتب قومية ، الدار القومية ، القاهرة ، (١٩٦٤) .

(٤) د . إدوارد سيدهم ، مشكلة اللاجئين العرب ، كتب قومية ، الدار القومية ، القاهرة ، (١٩٦٣) .

(٥) د . محمود دياب ، الصهيونية العالمية وإنرد على الفكر الصهيوني المعاصر ، دار الشعب ، القاهرة ، (١٩٧٦) .

(٦) د . حسن حنفي ، « هل يجوز الصلح شرعاً مع بني إسرائيل ، اليسار الإسلامي ، كتاب غير دوري ، العدد الأول ، القاهرة ، (يناير ١٩٨١) .

(٧) محمد علي علوبة ، فلسطين والضمير الإنساني ، كتاب الهلال ، دار الهلال ، القاهرة ، (١٩٦٤) .

(٨) أحمد بهاء الدين ، إسرائيليات ، كتاب الهلال ، دار الهلال ، القاهرة ، (١٩٦٥) .

(٩) د . مراد وهبة ، « رؤية إسرائيلية لمستقبل

